



أُرْخِي علينا بسدهوله قبل أيام يَوْمٌ كان فرقاناً في العصر الحديث ففيه فُتح سوق الجنة وعليه زاد طُلُبُها ومنه تسابق عُشاق الحرية والكرامة، يوْمٌ غداً كابوساً لكل طاغوت وظالم، لكسره جدار الوهم، وتحطيمه أسوار الخوف، وفتحه باباً للعزَّة، عوداً للوراء وتمثيلاً بالتاريخ لعبرةٍ مستفقةٍ منه وحتى نقرأ جيداً ولا نُجازف بتكرار أخطائه.

أُسرد إطلالة السيدة اعتماد أم الأمراء والأميرة المدللة من شرفة قصرها الإشبيلي عندما رأت -من بعيد- نسوةً يعملن في الزراعة ويخضن بالوحش والطين بأقدامهن فأعجبها منظرهن، وأرادت تجربته، فأستأذنت زوجها ملك إشبيلية الشاعر العاشق المعتمد بن عبَّاد - الذي اشتَقَ أحرف اسمه من اسمها لفطر حبه لها - في أن تخرج إلى ظاهر إشبيلية لتتمتع بالخوض في الطين مع بناتها..! فمنعته رسوم السلطنة وهيبتها من أن يأذن لها.

نعود لساحات الهمات وهي تصدح عالياً قد بُحَثَ حناجر ثوارها وتعبت أكتافهم وشابت مفارقهم وعارضتهم السنون بزيادة جرعة العمر في وجوه المُصطفين لترى الطفل تحسبه شيئاً من هول الحِمل، وثقل الموقف.

نظر البعض من شرفة تلفازه على ثورة الياسمين وثورة مصر فأعجبه عبر الحرية وأراد أن يجرب عبقها وهو المكتوب المظلوم والمكتوي من نار التجربة القديمة، ولحب الثورة لأبنائها وخوفها عليهم وعلمها ببطش ظلام العصر، أرادت أن تُدرج الأمر لهم وتبسيطه حتى يعرفوا يوم الطين ويقدروا له قدره.

كانت اعتماد لازالت تنتظر الإذن، غير أنه تعود أن لا يرفض لها طلباً، فمن فرط شغفه بها، أصدر مرسوماً إلى كل عطار في إشبيلية بأن يسوق كل ما لديه من عطر ومسك وأعواد طيب إلى قصر الملك بثمنٍ يحلم به كل تاجر، فتهافت التجار إليه، كتهافت العطشى لورود الماء وكمان المُقلَّة لقدمه ولدها.

حنَّت الساحات العامة لزوارها ورواد المظاهرات وأشتاقت اللافتات لخطاطها والورود والأرز لرشها، فكانت المظاهرات هي التعبير السلمي الأول الرافض لهيمنة نظام القمع والإجرام لاحتكر حق الكلمة والقلم، وتحدياً صارخاً بوجه أعتى وأحرق

نظام طائفي وأمني عرفته الأمم، وقفـت والجـمـوعـ مـصـطـفـةـ مـرـدـدـةـ شـعـارـاتـ كـتـبـتـ فـيـماـ بـعـدـ بـمـدـادـ منـ دـمـ وـبـرـاعـ منـ لـحـ وـكـانـتـ تـكـلـفـتـهاـ بـاهـظـةـ جـداـ،ـ تـزـينـتـ بـثـوـبـ الثـورـةـ وـرـفـعـتـ رـاـيـتـهاـ الـوحـيـدـةـ آـنـذـاـكـ،ـ وـبـدـأـتـ تـجـوـبـ المـدـنـ وـالـقـرـىـ وـالـحـوـاـضـرـ وـالـبـوـاـدـ وـالـمـدـارـسـ وـالـجـامـعـاتـ وـكـانـتـ شـرـارـتـهاـ مـنـ الـمـسـاجـدـ مـهـلـلـةـ مـكـبـرـةـ وـمـعـلـلـةـ سـبـبـهاـ وـمـوـحـدـةـ غـايـتـهاـ.

فـأـمـرـ ذـاـكـ الـزـوـجـ الـمـُتـيـمـ الـخـدـمـ بـعـجـنـ الـمـسـكـ وـالـأـعـوـادـ بـالـعـطـورـ فـيـ باـحـةـ قـصـرـهـ الـوـاسـعـةـ،ـ فـكـانـتـ أـشـبـهـ بـالـطـيـنـ وـالـوـحـلـ إـلـاـ أـنـ مـاءـ عـطـرـ ذـوـ رـائـحةـ نـفـاذـةـ.

**بينما تتهـأـ اـعـتـمـادـ لـلـنـزـولـ،ـ نـرـدـ عـلـىـ تـسـاؤـلـ الـمـراـقـبـ الـذـيـ يـقـولـ فـيـهـ،ـ ماـ جـدـوـيـ الـمـظـاهـرـاتـ بـعـدـ خـمـسـ سـنـينـ؟ـ**

أـعـجـبـنـيـ كـلـامـ قـائـمـ فـيـ جـيـشـ الشـامـ عـنـدـمـ اـخـتـصـرـ التـعـرـيفـ بـهـ وـقـالـ:ـ هـيـ الـأـصـلـ وـنـحـنـ فـرـعـ مـنـهـ،ـ هـذـاـ هـوـ تـوـاـضـعـ الـبـنـدـقـيـةـ لـلـحـنـجـرـةـ وـالـبـيـانـ لـلـلـفـافـةـ وـالـخـنـدـقـ لـلـسـاحـةـ.

لـلـمـظـاهـرـاتـ فـضـلـ عـلـىـ كـلـ مـنـ دـبـ عـلـىـ وـجـهـ الـمـحرـرـ،ـ فـبـعـدـ اللـهـ كـانـتـ سـبـبـاـ فـيـ خـرـوجـ السـجـنـاءـ الـذـيـنـ هـمـ قـادـةـ كـثـيرـ مـنـ الـتـنـظـيـمـاتـ وـكـانـتـ سـبـبـاـ فـيـ تـوـصـيـلـ رـسـالـاتـنـاـ لـلـعـالـمـ أـجـمـعـ مـنـ عـرـبـ وـعـجـمـ،ـ وـكـانـتـ سـبـبـاـ فـيـ عـوـدـةـ الـقـيـمـ الـمـجـتـمـعـيـةـ الـتـيـ كـانـتـ فـيـ شـبـهـ اـنـدـادـ زـمـنـ الـبـعـثـ،ـ وـكـانـتـ سـبـبـاـ فـيـ عـوـدـةـ النـاسـ لـسـلـيـمـ فـطـرـتـهـ،ـ وـتـوـعـيـةـ الـأـمـةـ لـمـعـرـكـتـهـ الـفـاـصـلـةـ الـتـيـ خـاـصـتـهـ بـنـفـسـهـاـ أـوـلـاـ وـلـاـتـزالـ.

كـانـتـ مـنـبـعـ كـلـ سـخـاءـ مـنـ دـمـ وـمـالـ،ـ حـشـدـتـ أـعـدـادـاـ لـاـ يـمـكـنـ لـأـيـ تـنـظـيـمـ مـهـمـاـ بـلـغـ أـنـ يـجـمـعـ عـشـرـهـاـ،ـ فـلـوـ اـجـتـمـعـتـ كـلـ الـتـنـظـيـمـاتـ السـوـرـيـةـ لـاـ يـصـلـ عـدـدـهـاـ لـعـشـرـ مـتـظـاهـرـيـ سـاحـاتـ حـمـاـةـ وـدـيرـ الزـوـرـ فـقـطـ،ـ يـكـفـيـ أـنـ تـنـادـيـ فـيـ أـيـ حـارـةـ (ـيـلـعـنـ رـوـحـكـ يـاـ حـافـظـ)ـ سـتـجـدـ الـأـلـافـ يـنـسـلـوـنـ إـلـيـكـ مـرـدـدـيـنـ هـتـافـتـهـمـ رـافـعـيـنـ شـعـارـتـهـمـ (ـالـمـوـتـ وـلـاـ الـمـذـلـةـ).

أـخـبـرـنـيـ مـنـ زـارـ الـصـيـنـ أـنـ بـعـضـ الـشـرـكـاتـ عـنـدـهـاـ تـرـدـدـ الشـعـارـ الصـبـاحـيـ وـتـحـفـيـزـ الـمـوـظـفـينـ،ـ تـسـاءـلـتـ فـيـ حـيـرـةـ مـنـ أـمـرـيـ ماـ فـائـدـةـ ذـلـكـ؟ـ!

عـلـمـتـ بـعـدـهـاـ أـنـهـمـ بـهـذـاـ يـضـبـطـونـ بـوـصـلـةـ الـاتـجـاهـ وـتـوـحـيـدـ الـجـهـوـدـ بـيـنـ صـاحـبـ الـشـرـكـةـ وـالـمـوـظـفـ،ـ كـمـ أـنـهـ حـشـدـ وـتـعـبـيـةـ يـوـمـيـةـ كـمـ الـعـسـكـرـيـةـ،ـ فـالـمـشـارـيـعـ لـاـ تـؤـمـنـ فـيـ بـقـائـهـاـ عـلـىـ أـسـاسـيـاتـهـاـ مـنـ الـانـحـرـافـ،ـ إـذـ لـاـ بـدـ مـنـ تـقـيـيـمـ وـتـصـوـيـبـ كـلـ فـتـرـةـ فـلـاـ يـمـكـنـ لـسـهـمـ اـنـطـلـقـ أـنـ يـسـتـمـرـ بـنـفـسـ الـسـوـيـةـ،ـ فـلـاـ بـدـ مـنـ تـغـيـرـ قـنـاعـاتـ وـتـبـدـيـلـ اـجـتـهـادـاتـ وـتـبـنـيـ آـرـاءـ جـدـيـدةـ.

وـلـابـدـ مـنـ إـلـاـشـارـةـ هـنـاـ لـبـعـضـ أـجـهـزـةـ الـاـسـتـقـبـالـ عـنـدـ الـبـعـضـ حـيـثـ إـنـهـاـ مـشـوـشـةـ لـاـ تـلـقـطـ الـذـبـنـيـاتـ الـمـوـجـهـةـ لـلـفـكـرـ الـمـرـادـ تـوـصـيـلـهـاـ الـتـيـ نـوـضـحـ فـيـهـاـ أـسـاسـ الـفـكـرـ،ـ إـنـ هـنـاكـ نـظـرـةـ خـاطـئـةـ عـنـدـ أـكـثـرـ إـلـاسـلـامـيـيـنـ وـخـلـطـ عـنـدـ الـجـهـادـيـيـنـ مـنـهـمـ خـاصـةـ فـيـ الـنـظـرـ وـالـمـوـقـفـ مـنـ الـسـلـمـيـةـ كـتـكـيـكـ صـرـاعـ وـأـسـلـوـبـ قـوـةـ جـدـيـدـ مـُتـبـعـ فـيـ ثـوـرـاتـ الـرـبـيعـ الـعـرـبـيـ وـبـيـنـ مـنـ يـتـبـنـاهـاـ كـمـذـهـبـ دـيـنـيـ أـوـ فـكـرـيـ،ـ وـمـنـ يـقـرـأـ (ـتـشـيـ غـيـفـارـاـ وـجـيـنـ شـارـبـ)ـ يـفـهـمـ أـنـنـاـ نـتـكـلـمـ عـنـ شـيـءـ أـخـرـ غـيـرـ سـلـمـيـةـ (ـغـانـدـيـ وـجـوـدـتـ سـعـيـدـ)،ـ وـهـيـ الـآنـ شـكـلـ مـنـ أـشـكـالـ الـحـشـدـ وـالـتـعـبـةـ وـاـسـتـيـعـابـ وـتـوـظـيـفـ طـاقـاتـ مـجـمـعـيـةـ مـسـانـدـةـ لـلـعـسـكـرـةـ وـالـسـيـاسـةـ،ـ وـأـمـوـاجـ تـجـيـشـ الـحـاضـنـةـ الـشـعـبـيـةـ وـتـفـاعـلـهـاـ مـعـ الـحـرـاكـ،ـ فـخـرـوجـ الـمـظـاهـرـاتـ هـوـ زـيـادـةـ التـحـامـ وـمـشـارـكـةـ مـعـ أـهـلـ الـجـهـهـاتـ حـتـىـ لـاـ يـعـزـلـ الـمـجـاهـدـوـنـ أـمـامـ شـعـوبـ دـوـلـ الـعـالـمـ.

وـأـقـولـ شـعـوبـ لـأـنـ رـأـيـ شـعـوبـ الـدـوـلـ الـعـالـمـيـةـ الـكـبـرـيـ لـهـ تـأـثـيرـ كـبـيرـ فـيـ تـغـيـرـ سـيـاسـاتـ الـثـلـةـ الـحـاـكـمـةـ فـيـ بـلـادـهـمـ،ـ وـبـالـتـالـيـ تـغـيـرـ الـقـرـارـ لـمـصـلـحـةـ الـشـعـبـ الـسـوـرـيـ الـمـظـلـومـ ضـدـ هـذـاـ النـظـامـ الـفـاشـيـ،ـ وـهـذـاـ مـكـسـبـ سـيـاسـيـ كـبـيرـ قـدـ لـاـ يـتـبـهـ إـلـيـهـ كـثـيرـ مـنـ الـنـاسـ.

ـ فـقـوهـ ثـورـةـ الشـامـ كـانـتـ وـلـازـلـتـ فـيـ قـوـةـ شـعـبـيـتـهـاـ وـالـتـحـامـ أـبـنـائـهـاـ،ـ وـلـاـ تـوـجـدـ صـورـةـ تـدـلـ عـلـىـ هـذـهـ الـشـعـبـيـةـ كـالـمـظـاهـرـاتـ.ـ فـمـحاـوـلـةـ اـسـتـهـجـانـهـاـ أـوـ التـقـلـيلـ مـنـهـاـ هـوـ فـيـ الـحـقـيـقـةـ ضـرـبـ لـلـحـاضـنـةـ الـشـعـبـيـةـ وـعـزـلـهـاـ عـنـ الـمـجـاهـدـيـنـ وـهـذـاـ يـصـبـ فـيـ مـصـلـحـةـ أـعـدـاءـ الـثـورـةـ،ـ فـلـيـتـنـيـهـ بـعـضـ الـمـشـكـكـيـنـ مـنـ خـارـجـ الـحـدـودـ الـذـيـنـ يـقـومـونـ بـالـتـحـريـشـ عـلـىـ الـمـظـاهـرـاتـ بـحـجـةـ أـنـهـاـ لـمـ تـعـدـ مـجـدـيـةـ.

أن يكونوا أداة لتنفيذ خطط أعداء الثورة من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

كما يستفاد من عودة المظاهرات وعودة الروح للثورة أن الشعب هو الذي يحمي الفصائل وليس العكس كما يظن البعض، وأي فصيل تخلى عنه حاضنته الشعبية لأي سبب مصيره الزوال. هنا نزلت اعتماد وبناتها ليخضن في الطين المعطر جيئة وذهاباً...

وكان يوماً مشهوداً... وتسرب الخبر وقال نسوة في المدينة - بعد أن بلغ بيوت العامة قبل الخاصة بإشبيلية والأندلس-: عن مكان اعتماد في قلب المعتمد.

فحب الثورة هو الانتساب لها والقتال ضمن مبادئها وتبني رايتها وأسسها التي انطلقت منها لتحصيل الحرية والكرامة، والابتعاد عن صبغها بلون واحد، وتنعير الناس عليها، وتأليب الأحلاف ضدها.

إن من يخجل من كلمة ثورة وثائر ويترفع عن ميادين التظاهر، وينسى التأثر الأول الأعزل يومها بتظاهره كان بمثابة العملية الاستشهادية في يومنا هذا، فلا تخسوا الناس أشياءهم، ستكتب شهادتهم ويسألون.

ولم يكن إسراف المعتمد ليمر دون عقوبة إلهية فقد جاء (ابن تاشفين) والمرابطون، وأندوا الأندلس من القشتاليين وملوك الطوائف أيضاً، ثم أخذوا المعتمد واعتمد إلى الإقامة الجبرية في ذل و هوان حتى، قيل أخبار ابن عياد تذيب الأكباد. فها هي أخبار الثورة الشامية كانت ضد طاغية غدت ضد عدة دول وأشكالٍ من الطغاة وطارت أخبارها في أرجاء المعمورة بين مؤيدٍ لها وخاذاً، لم تستسغ اعتماد حياة الفاقه والذل، وفتها رأت (الطين الحقيقي) وحصل أن تجادلت مع زوجها الملك الأسير المعتمد يوماً وتشاحنا فقالت له منذ عرفتك ما رأيت خيراً قط، فقال لها بدهشة وألم: ولا حتى يوم الطين...؟! فخجلت هنا وسكتت عن الكلام المباح.

وبعد حياة كثرة حولها الجدالات ماتت اعتماد ومات المعتمد، ومن عجائب الأيام أنه نُودي على جنازته (الصلوة على الغريب) فسبحان من لا يزول ملكه.

في نهاية حياته مات معه انتماوه للإمارة ووَدَّ معه طائفته المحصورة المعزلة عن الأمة المنفلقة عن الشعب المكافح. ويُحكي في الأسطورة أن فلاحاً فرنسياً يدعى نيكولاوس شوفين استحثته وطنيته للتطوع في جيش نابليون بونابرت من أجل الدفاع عن بلاده، وبعد إصابته في المعركة، تم منحه راتباً تقاعدياً لم يكن كافياً لتغطية حاجاته. ورغم ذلك، وبعد الإطاحة بنابليون استمر شوفين بولائه وتعصبه الأعمى للشخص الذي لم يعتن به حق العناية. ومن اسمه، تطور مصطلح الشوفينية، وبات يستخدم في وصف كل توجه عنصري مغالٍ ازدرايٍ للآخرين وأي شوفينية تنظيمية مقابل الانتماه الثوري مرفوضة، "من تنكر لثورته لن يذكر يوم الطين الثوري وعقب مسك دمها"